الفيلة

مسرحية في فصل واحد

بقلم الدكتور عمر الدقس

دكان لبيع العاديات والاثاث القديم .

المكان ـ كأي مكان مماثل ـ فخم مملؤ بالرياش الثمين . في صدر المسرح نافذتان وباب يؤدي مباشرة الى الطريق . في الزاوية اليمنى من الدكان جلس صاحب المتجر وصاحباه : القاضي والاستاذ .

القاضي : كلا ! ان الامير ليس مجنونا .

الاستاذ : الم تر الى القصر الذي بناه ؟ الم تر الى الفيلة التي أسكنها فيه ؟

القاضي : يقال ان القصر رائع كأنه بني لسلطان جليل .

التاجر : اما أنا فلم ار في حياتي شيئا اكثر منه قبحا .

الاستاذ : ولكن قل لي هل تستاهل الفيلة مثل هذا البناء ؟

القاضي : لا ادري . ولكنك تعرف ولع الامير بالفيلة .

الاستاذ : يقال انه يعلمها القراءة والكتابة ويدربها على اصول الغناء .

القاضي : لا تعجب اذا فعل .

الاستاذ : من يدري لعله في غد ان ينصب منها حكاما ويصنع قادة !

التاجر : الويل لنا اذا فعل ذلك .

القاضي : لم ؟ اتخاف من الفيلة ؟

التاجر : الفيلة لا تخيفني . ولكن الانسان الذي يريد ان يصنع منها بشرا يملؤني رعبا .

الاستاذ : لا شك في ان الامير مجنون .

التاجر : لو لم يكن مجنونا لما كره الناس وعشق الفيلة .

القاضي : ما زلت اذكر السجن الذي القاني فيه .

الاستاذ : لان حكما قضيت به لم يصادف عنده هوى .

التاجر : وأبي ! هل تذكر ؟ لقد امر بنفيه لانه كان انسانا حكيما .

الاستاذ : وابنتي ! لو لم ابادر الى ابعادها لتزوجها غصبا .

القاضي : أرأيت ؟ انه ليس مجنونا .

الاستاذ : بل هو مجنون . أنا لا اصدق ان ثمة انسانا عاقلا يبني للفيلة قصرا .

القاضي : لقد جعل الناس يهربون من المدينة خوفا من الفيلة .

التاجر : لقد يبس العشب وخلت البيادر من زارعيها .

الاستاذ : ونضبت الجداول وانقطع الماء .

القاضي : وانكفأت الاشجار الى الارض تريد ان تودعها ثمارها .

التاجر : وانحبس المطر .

الاستاذ : وقدم الجراد .

القاضي : وخرست العصافير .

التاجر : وماتت شجرة الليمون في بستان ابي .

الاستاذ : وتصدعت الجدران في بيت جاري .

القاضي : وانهتك الستر

التاجر : وانخرط الاطفال في البكاء .

الاستاذ : ويبست الحروف في دفاتر تلاميذي .

القاضي : وغدا الاثم عادة ، فخلت المحاكم الا من اثاثها .

التاجر : اما تجارتي فقد بارت .

القاضي : لقد خلت جيوب الناس من المال .

التاجر : صار الدينار حكاية .

الاستاذ : صار الدرهم كنزا .

القاضي : الفيلة تأكل ولكنها لا تشتري اكلها .

التاجر : لقد امر الامير ان يقدم لها الطعام بدون عوض .

الاستاذ : ولكن الفيلة لا تقرأ .

القاضي : ولا تضع فوقها ثيابا .

التاجر : ولا تعرف ماذا تفعل بأعينها .

القاضي : لقد أغلقت السماء ابوابها .

التاجر : اما تجارتي فقد بارت .

القاضي : لقد بارت كل تجارة .

التاجر : اصرف ما في جيبي وبضاعتي كاسدة .

القاضي : لن تجد اليوم من يشتري طبقا من ذهب .

الاستاذ : او آنية من فضة مموهة .

القاضي : او مقعدا من عهد هارون الرشيد .

الاستاذ : او مجمرة صندل .

القاضي : او صندوقا من خشب الابنوس .

الاستاذ : او لوحة صنعها رسام مخبول .

القاضي : او كتابا تهرأت جوانبه ونصل منه المداد .

الاستاذ : او بساطا حاكته يد اميرة من اميرات فارس .

التاجر : يا للمصيبة ! سوف أغلق دكاني .

الاستاذ : انا سوف اغلق مدرستي .

القاضي : وأنا سوف اغلق محكمتي .

الاستاذ : ولكن قل لي ، هل تظن ان في امكان الامير ان يودع في الفيلة طباعا غير طباعها ؟

التاجر : انا لا اريد للفيلة ان يكون لها طباع غير طباعها ولكن اريد للامير ان يكف عن رغبته في تغييرها .

الاستاذ : انا لا أضمر للفيلة الا حبا .

القاضي : وانا احب فيها وداعتها وقوتها .

التاجر : اما الامير فلا يحب فيها الا غرائزها .

القاضي : الامير لا يحب الفيلة ولكنه يريدها وسيلة يرهب بها الناس .

الاستاذ : اما انا فاغلب ظني ان الامير مجنون .

القاضي : عدنا الى حكاية الجنون .

الاستاذ : لا اجد صفة ادق منها انعته بها .

التاجر : ربما كان قصده طيبا .

القاضي : وربما كان سيئا .

الاستاذ : اما أنا فسأغلق المدرسة وارحل .

القاضي : العلم في هذه المدينة منبوذ .

الاستاذ : والعدل تهمة .

التاجر : والتجارة اثم .

القاضي : يقال ان الفيلة اذا تعلمت فاقت الانسان في لطافة حسها

الاستاذ : وذكائها أيضا :

القاضي : ولكن الامير يريدها اداة يسيرها كما يشاء .

الاستاذ : اذن فلن تستطيع الفيلة يوما ان تقرأ .

القاضي : او تفكر .

التاجر : او تبدع فنا .

(يفتح الباب بعنف ويدخل منه فتى في مقتبل العمر)

الفتى : أبي !

التاجر : ماذا تريد يا بني ؟

الفتى : الوقت قد حان وانتم ما تزالون جلوسا ؟

التاجر : وماذا نريد منا ان نفعل ؟ اننا نثرثر كعادتنا .

الفتى : تثرثرون والاحداث تجري مسرعة !

التاجر : ولكنني لا افهم شيئا !

القاضي : ولا انا

الاستاذ : ولا انا !

الفتى : الم يصلكم النبأ ؟ ان الامير يريد ان يجعل من هذا اليوم يوما مشهودا .

التاجر : اتعني بذلك الفيلة التي اكمل اليوم تدريبها ؟

الفتى : نعم ! انه يقيم لها مأدبة .

القاضي : مأدبة ؟!

الفتى : نعم مأدبة .

الاستاذ : اليس هذا حدثا عجيبا ؟

الفتى : لقد دعا اليها كل اهل المدينة .

القاضي : اذن فلننصرف ! فانا لا اريد لهذا المشهد ان يفوتني.

الاستاذ : وانا أيضا . فلربما وجدت فيه درسا القنه لتلاميذي.

التاجر : اما انا فباق هنا ! اني احس كأن الفيلة ستأتي اليّ بنفسها .

(يخرج القاضي والاستاذ . يقف الفتى لحظة وهو ينظر الى ابيه)

التاجر : اذهب أنت أيضا يا بنيّ . فلست اريد لك ان تزهد في الفيلة مثلي . (يخرج الفتى)

التاجر : مأدبة للفيلة ! صدق من قال : من بعش بر . نعم من يعش ير . لقد عشنا ورأينا ! الان ادرك ان تلك الاحداث التي مرت بي قد جعلت اعصابي تشيخ قبل اوانها . يخيل اليّ ان احتمالي ما ارى امر لا يطاق . لقد نفد صبري . لقد بدأت ادرك ان خطأ ما قد دخل حياتي فافسدها . انا أعلم انني لست شابا .. غير ان ليأملا في الحياة لم ينقطع . ولكن شيئاما ... شيئا حادا مؤلما يخزني في صدري كل يوم كأنه يذكرني بان جسدي هذا قد آن له ان يستريح . ولكن لم اسرف في هذا ؟ ان الحياة ما تزال تشوقني؟ غير اني انظر حوالي فاحس انني اعيش في عالم غريب لا تربطني به اي الفة . عالم ضائع .. مهووس .. لا يكاد يعرف الى اين يسير . حتى تجارتي هذه اصبحت انكرها . لقد غدت في اعين فريق من الناس هزءا . وغدت في اعين فريق اخر اثما . اما انا فلشد ما كنت احبها . كان الاناء بين اصابعي يلمع كأنه زهرة ناعمة تعلم انني لا اريد بها اذى . وكانت الجرار التي تناثرت اجزاء منها تطمئن الى يدي كأنها تدرك انني ساحاول ان اعيد اليها بهاءها . كانت تجارتي ربحا يستهويني ، ولكنها كانت ايضا حبا اعيش فصوله حكاية حكاية . ولكن الامور كلها تبدلت منذ بدا للامير ان يفتح قصوره للفيلة التي جاء بها من اقاصي الارض . لقد رأيت الارض تصلب كأنها تتوقع ان تسير عليها قدم فيل . ورأيت الزنابق تنقبض ثم تدس رؤوسها في التراب كأنها تخاف ان تدوسها قدم فيل . ورأيت المدينة تسرف في نفاقها حتى غدا الفيل حلية في آذان نسائها وختما على صدور الرجال منها . حتى انني خيل اليّ ان عيون الناس اخذت تضيق شيئا فشيئا كأنها استعارت من عيون الفيلة شكلها . اواهم انا ؟ لست أدري . ان عقلي قد جمد كل عقل اخر في المدينة. لقد جعلت ابرم بحياتي كلها ... أضيق بما حولي كأن شيئا ما قد دخل بيني وبين الاشياء جميعها . لشد ما اود لو ينقطع هذا الوناق الذي يشدني الى الارض حتى اصبح جناحا لطائر مهاجر او ورقة في ريح لا تعلم اين مستقرها . ولكن لا . لن اسمح لسأمي هذا ان يختم عليّ بصري . ان لهذه الارض صوتا ما يزال يرن في اذني . لقد ولدت على هذه الارض لالتصق بترابها . لاشرب من مائها . ملأ صدري من هوائها . لاعيش مع ناسها وحيوانها . قد اثور مرة وقد اغضب اخرى. ولكن قدمي لا يمكن ان تتزحزح من مكانها .

(يجلس التاجر على احد المقاعد ويضع رأسه بين يديه . ضوء خافت . يسمع صوت الباب المؤدي الى الطريق وهو يفتح . يلتفت التاجر فيرى الامير يدخل المتجر ومعه ثلة من الحرس . الامير في لباس حديث ما خلا عمامة مزركشة يضعها على رأسه)

الامير (وقد لاحظ اضطراب التاجر) : ماذا ؟هل ساءك مقدمي؟

التاجر : كلا يا سيدي . كلا .

الامير : لعلك كنت في طريقك الى المأدبة ؟

التاجر : من ؟ انا ؟

الامير : بل لعلك لم تكن تنوي الذهاب اليها ؟ اليس كذلك ؟

التاجر : لا ادري يا سيدي .

الامير : لا تخش شيئا . قل انك لم تكن تنوي الذهاب الى المأدبة.

التاجر : هذا صحيح يا سيدي .

الامير (وهو يدير عينيه في المكان) : اراهن على ان دكانك هذى ستكون بهجة لاعين فيلتي .

التاجر (مرتاعا) : ماذا قلت ياسيدي ؟

الامير (وهو يتناول طبقا من الخزف الثمين موضوعا على منضدة): هذا الطبق رائع .

التاجر (مبتهجا لتبديل الحديث) : نعم يا سيدي . انها قطعة نادرة لا مثيل لها .

الامير : كم اود ان ارى احد الفيلة ياكل فيه .

التاجر (بصوت مذعور) : سيدي !

الامير : لقد سمعت ما قلت .

التاجر : ولكنه طبق لا يصلح للاكل ياسيدي. انه زينة عين ومتعة ذوق .

الامير : وماذا يحدث لو ان احد الفيلة اكل فيه ؟ (مشيرا الى احد الحراس) تعال ايها الحارس . خذ هذا الطبق .

يتقدم الحارس من الامير فياخذ منه الطبق ويخرج)

التاجر : سيدي . لو امرت احد الحدادين في المدينة لصنع لك اطباقا لا تكسر .

الامير : ارى انك لا تحب الفيلة .

التاجر : الفيلة ؟ انا لا اكرهها .

الامير : ولكنك لا تحبها .

التاجر : احبها في غاباتها . احبها ترتع فيها دون ان تؤذي انسانا .

الامير : قل لي . هل سمعت برجل اغتابه فيل ؟

التاجر : كلا يا سيدي .

الامير : هل سمعت بطفل اختطفه فيل ؟

التاجر : كلا يا سيدي .

الامير : هل سمعت بامرأة اغتصبها فيل ؟

التاجر : كلا يا سيدي . ولكن بقاء هذه الفيلة في المدينة افسد عقول اهلها .

الامير (وهو يمسك بيديه اناء مذهبا منقوشا) : اناء جميل . كان للنقوش التي رسمت عليه فما .

التاجر : انه اناء قديم تزعم الحكايات ان اول من شرب فيه كان حورية من حوريات البحر .

الامير : لقد ترامى اليّ انك تبيع هذه الاشياء بالثمان باهظة قل لي ارابحة تجارتك ام خاسرة ؟

التاجر : انا اعيش منها ياسيدي . ولكن لن اصبح بفضلها ثريا.

الامير : ولكن قل لي . ماذا يحدث لو ان احد الفيلة شرب من هذا الاناء ؟ (مشيرا الى احد الحرس) تعال ايها الحارس . خذ هذا الاناء .

(يتقدم الحارس من الامير فياخذ منه الاناء ويخرج)

التاجر : هل ارسلت بذاك الاناء الى الفيلة لتشرب منه ؟

الامير : واي غرابة في هذا ؟ ان الفيلة تحتاج الى الآنية كما تحتاج اليها بقية المخلوقات .

التاجر : ولكن الاناء ثمين ! والفيلة لا تعرف له قيمة .

الامير : ما اكثر الاشياء الثمينة التي لا نعرف قيمتها !.

التاجر : اما انا فاعرف ان لهذا الاناء قيمة .

الامير : اناء محبوس في حانوت مظلم . قل لي ما الفائدة منه ؟

التاجر : انا لا اريد له ان يحبس في حانوتي يا سيدي !ولكنني لا اريد ان تلهو به الفيلةثم تكسره .

الامير : قل انك لا تحب الفيلة ايها الرجل .

التاجر : بل انا احبها يا سيدي ! ولكن هذا لا يعني انني اضعها فوق غيرها من المخلوقات .

الامير : واين تريد ان تضعها اذن ؟

التاجر : في مكانها يا سيدي . في مكانها .

(يتقدم الامير من اريكة نفيسة
مصنوعة من خشب مذهب محفور
وقماش مخملي فاخر ، ويتاملها)

الامير : ايها الرجل . لا شك في انك مرهف الذوق حقا ! ان قصري لا يحتوي على مثل هذه الاريكة . من اين جئت بها ؟

التاجر : لقد شريتها من رجل غريب كان يسكن المدينة ثم رحل عنها منذ عامين .

الامير (وهو يقعد على الاريكة ويأخذ في امرار يديه على خشبها ومخملها) : انها رائعة حقا . ان بعض العامة اقدر من الملوك على اقتناص اللذة .

التاجر : لقد سمعت من الرجل الغريب انه اتى بها من مكان بعيد ... بعيد .

الامير : فلتكن نهايتها مثل بدايتها (يشير الى الحرس)ليتقدم اثنان منكم فيحملاها . (ينهض عن الاريكة بينما يتقدم منها حارسان) ولكن احملاها برفق . برفق .

(يخرج الحارسان بالاريكة)

التاجر (وهو يسقط على احد المقاعد متهالكا) : سيدي . سيدي ماذا تفعل ؟

الامير : لقدحلمت باحد الفيلةمستلقيا عليها فاردت ان ارسلهاليه.

التاجر : ولكنها اريكة دقيقة ناعمة لا تقوى على حمل فيل .

الامير : اليس للفيلة حق في ان تضطجع على هذا الاثاث ؟

التاجر : لن تجد الفيلة فرقا بينها وبين تلة من قمامة . اما هذه الاريكة فانها ستكسر حتما . ستصبح حطاما .

الامير : وماذا يحدث لو انها كسرت ؟ يكفي ان يستشعر احد الفيلة بانه استطاع ان يضطجع عليها .

التاجر : اتظن انك بهذا تسدي الى الفيلة معروفا ؟

الامير : لن تستطيع فهمي ايها الرجل ..

التاجر : لا ياسيدي . لن استطيع فهم هذا ابدا .

الامير (وقد راى الحارسين يدخلان بعد ان عادا من اداءعملهما) هل قلتما للخدم ان يضعوا الاريكة في صدر القاعة ؟

الحارسان : نعم يا مولاي .

الامير : حسنا فعلتما .

التاجر (ساخرا) : وهل تنوي ان تجلس عليها كبير الفيلة ؟

الامير : هذا ما اريد ان افعله تماما .

التاجر : لا ادري يا سيدي . يخيل الي انني سأفقد عقلي .

الامير : وماذا يفيدك ان يكون لك عقل ؟ قل لي ماذا يفيدك ان يكون لك عقل ؟

التاجر : لا ادري : لا ادري ! اغلب ظني انني لن افيد منه شيئا.

الامير : صدقت . لن تفيد منه شيئا .

التاجر : لقد خسرت العقل والمال ايضا .

الامير : اقلت المال ايضا ؟ لم اكن اعلم ان لك مالا ؟

التاجر : وهذه الاشياء التي ارسلت بها الى الفيلة ؟

الامير : لقد وجدتها عندك متروكة فاردت للفيلة ان تستمتع بها !

التاجر : والناس يا سيدي ؟ الن تبقي لها شيئا تستمتع به ؟

الامير : الناس ؟ الناس لا متعة لها في اشيائك هذى . قد تنصبها في قاعاتها . قد تخزنها في معابدها . وقد تحلم بها ايضا. منذ مائة عام . منذ الف عام ، والناس لا تفعل غير هذا . اما الفيلة فلعل دورها قد جاء الان .

التاجر : للفيلة عيون صغيرة لا ترى بها غير اكلها .

الامير : ساعلمها كيف تحدق بها الى السماء .

تبدا(حركات الامير والحرس منذ هذه اللحظة تصبح حركات سريعة تكاد تكون آلية . يشير في خلالها الامير الى احد الاشياء الموجودة في الدكان فيسارع الحرس الى اخذه)

التاجر : السماء لا تحتاج الى عيون صغيرة تحدق اليها .

الامير (كانه لم يسمع ما قيل): ساعلمها كيف تحدق بها الى السماء .(الى الحرس) اترون الى هذه المنضدة ؟احملوها .

(يخرج احد الحرس بالمنضدة)

التاجر : منضدة من صدف . لن تعرف الفيلة ماذا تصنع بها .

الامير : ساعلمها كيف تضع عليها اطباق طعامها . (يشير الى الحرس) وهذان المقعدان ايضا .

(يخرج الحرس بالمقعدين)

التاجر : مقعدان كانا في قصر من قصور المماليك .

الامير : وهذان القنديلان المحليان بالجواهر .

(يخرج الحرس بالقنديلين)

التاجر : سيصبح المكان مظلما بدونهما .

الامير : اني امقت الضياء .

التاجر : لا عين تستطيع ان ترى في الظلمة .

الامير : لعلني لا اريد ان ارى .

التاجر : بل لعلك لا تستطيع ان ترى .

الامير (وهو يتأمل على احدى المناضد مجموعة من التماثيل الصغيرة): ماذا ؟ اما يزال عندك اوثان تخصها بالعبادة ؟

التاجر : كلا يا سيدي . انها تماثيل من عاج لا تصلح الا للزينة .

الامير (الى الحرس) : خذوا هذه التماثيل . لعل الفيلة تظنها آلهة فتسجد لها .

(يتقدم حارسان فياخذان المجموعةويخرجان)

التاجر : بل لعلها تظنها قطعا من الحلوى فتقضمها .

الامير : يحزنني ما صرت اليه . لقد قصر بك ذكاؤك حتى صرت واحدا من اولئك السذج الذين لا يرون في الفيلة الا افواهها .

التاجر : وانت يا سيدي ماذا ترى فيها ؟

الامير : ارى فيها شيئا لا اظن احدا يستطيع ان يشاركني فيه .

التاجر : اذن ما الفائدة ؟

الامير : لا ادري !

التاجر (وهو ينظر الى الاميريحدق الى لوحة زيتية ضخمة على الجدار): لوحة رسمها فنان ومات قبل اتمامها .

الامير (الى الحرس) : هل تستطيعون حملها ؟

(يأخذ الحرس في رفعها عن الجدار والخروج بها)

التاجر : بورك للفيلة فيهـا .

الامير : ما اسم هذه اللوحـة ؟

التاجر : لا اسم لهـا .

الامير : اني لمحت فيهـا امرأة تفك قيودها .

التاجر : هل لمحت ذلـك حقـا ؟

الامير : نعـم .

التاجر : لم يبق الا كرسيـان وبضع مناضد .. قل لحرسك ان يأخذوها.

الامير : خذوا هذه الاشياء جميعها . لم يبق لي حاجة اليكم .

(يخرج الحرس كلهم . المكـان الان عار تماما)

التاجر : لقـد فرغ دكانـي .

الامير : لقـد فرغ كل دكـان.

التاجر : سيأكل الناس اذن في بيوت الفيلة .

الامير : اذا شاءت .

التاجر : واذا لم تشـا ؟

الامير : ماتت جوعـا .

التاجر أيسرك هـذا ؟

الامير : لا أدري !

التاجر : وهل ينوي ان تأكل انت ايضا في بيوت الفيلة ؟

الامير : لا أدري !

التاجر : اعني هل ستتركك الفيلة تأكل معهـا ؟

الامير : لقد احسنت اليهـا ، فلمـاذا تريدها ان تمنع عني شيئـا وهبتـه لهـا ؟

التاجر : الفيلة كالناس ، لا ذمة لهـا .

الامير : ستكـون اذن نهايتي

التاجر : كم اشتهي ان ارى ماذا تصنع عندها ؟

الامير : لن اصنع شيئا . سأترك للفيلة ان تصنع ما تشاء .

التاجر : وعندها ستكـون النهايـة .

الامير : نهايـة هـاذا ؟

التاجر : لا ادري ! لعلهـا تكـون نهاية انسان واحد ، ولعلهـا تكـون نهايـة اناس عديدين .. ولعلها .. (يتوقف)

الامير : ولعلهـا ؟ ...

التاجر : ولعلهـا تكون نهايـة وهم كبير .. كبيـر .

الامير : لم افهـم شيئـا .

التاجر : لعلني لم أقل شيئا .

الامير : لا ادري ،لقـدنسيـت .

التاجر : اذن ؟

الامير : قلت اني لم افهم شيئـا .

التاجر : لا ادري لماذا نصر علىان نجـد لكل ما يحدث معنى !

الامير : اجل ! لا ادري لـم نصر على ان لكل ما يحدث معنى !

التاجر : ربمـا كان ذلك لنقص فينـا !

الامير : بل ربمـا كان ذلك لرغبة منـا في الكمال .

التاجر : الكمال ؟ اني لا ادرك معنى لهذه الكلمة .

الامير : وانا ايضـا لا ادرك لها معنى . ولكـن هذا لا يمنعني مـن البحث عنه . قد يبدو لك قولي غريبـا . لقـد ظن بـي بعض الناس جنونا .قيل لي ان المدينة لا تتهامس الا عـن لوثـة في عقلي جعلتني ارفـع للفيلة قصرا واقيم لها مأدبة . ان غباء الناس يحيرني ،يقلقني. ولكـن قل لي اليس في اعماق كل انسان قصر رفعه للفيلة التي ظـن انه يستطيع ان يجعل منهـا شيئـا عظيمـا ؟ اني لا امقت الناس ، بل انني احبهـم في اكثر الاحايين . ولكن الغباء يقتلني. الم تر الى الانسان كيف صـار ؟ لقـد مسخ مسخا . لقـد ترك خياله يعبث بالكـون .لقد ترك اصابعه تلهـو بالاشيـاء . فمـاذا حدث ؟ لقـد صغر الانسان وكبر الكـون . لقـد صغـر الانسان وكبرت الآلـة . حتى روح الانسان .. تلك الروح الشفافـة الغامضة ، اصبحت رقمـا يضاف الى رقم ثم تودع في آلة من معدن رخيص فيلفظها رقمـا جديدا . لقـد صغر الانسـان يا صديقي . لقـد نضج عقله نضجـا حتى وقع على صيغ مجنونة ينظم بهـا الحياة التي يعيشهـا ويسير فوق هواها . لقـد اخترع الانسان الآلـة . لقد صنع القنبلـة . لقـد ابتدع المبادىء . فماذا جنى مـن هذا كله ؟ صار عبدا . صار شيئا تافهـا حقيرا . ان غباء الانسـان لا حد لـه . اما الفيلـة فقـد بقيت كمـا هي . ترى هل يعني هذا انها كاملـة لانهـا لم تنقص ؟ لا ادري . اني احس احيانا ان ثقتي بهـا ثقة وهم لا ثقـة يقين . هل نستطيع ان نعيد الى الحياة معناها اذا عدنا الى الينابيع التي صدرت عنها ؟ انـا لا اهذى أيهـا الصديق . ان عملي كان شؤما علـى ناس كثيرين . وقد يكون شؤما عليّ انـا ايضا . انـك لا تستطيع ان تصدقني الا اذا ايقنت بانني لست مجنونا او طاغية . ان الذرائع لا تختلف بين فم وفم . ولكن النية التي وراءها هـي التـي تختلف . قد اكون اذن انسانا مشغوفا بالكمال وقد اكـون مجنونا . وقد اكون طاغية . ان حكمك عليّ يقتضي منك ان تحدد الزاوية التـي تنظر اليّ منها .

التاجر : وانت ؟ هل عرفت حقـا اي هؤلاء الثلاثة انت ؟

الامير : من ؟ انـا ؟

التاجر : نعـم !

الامير : انت لا تصدقني .

التاجر : انا لست ذكيا ولكنني لست ساذجا . اني اريد ان اعرف ايـن تجد نفسك في هذا كله ...

الامير : لا ادرى . لا ادرى .

التاجر : لم تهرب من اجابتي ؟ هات لي برهانا .

الامير : لا برهـان عنـدي .

التاجـر : اذن ؟

الامير : لقد زرعت في صدري شكا . لن اغفر لك ذلك ابدا .

التاجر : يالك من مسكين ! لقـد ابتدعت الفكرة ولكنك لـم تستطع ان تجـد لهـا برهانا .

الامير : كلنـا مساكين ايهـا الصديق . الذين يبتدعون الافكار والذيـن يتعذبـون بسببها . والان وداعـا . لقـد حان وقت المأدبة. الستـ قادمـا .

التاجـر : كـلا .

الامير : كنت اتوقع منك هـذا .

(يخـرج الامير)

التاجر : مساكين ! نعم كلنـا مساكين ! انـا لا افهـم لـم يصر بعض الناس على ان يكـون لهم اوهام كبار !اوهام يصنعونها صنعـا ويؤلفـون بين اجزائها تأليفـا ثم يحاولون ان يقسروا الناس علـى قبولهـا .. .على اتباعها . لقـد رأيت في حياتي مجانين كثيرين .. رأيت مجانين يريدون للناس كلهـا ان تلبس نفس اللباس ، ان تأكل نفس الطعام . رأيت مجانين يريدون للناس كلهـا ان يكـون لهـا عين الافكار، عين الملوك . اما أنـا فانني اعلن ايماني بحق كل انسان في ان يكـون من يشاء .. في ان يكـون مـا يشاء. قـد ينتصر اولئك المجانين وقتـا ما ... قـد تصبح تلـك الاوهام التي اخترعوها شرعـة ينقاد اليهـا الناس . ولكنني على يقيـن بان النفوس التي خلقهـا الله لن تقبـل تغييرا . لقـد رأيت في حياتي مجانين كثيرين . ولا شك في انـنـي سأرى غيرهم اذا امتد بي العمر ، ولكني اعلم انهم لن يكونوا غيـر مجانين .. غير فقاقيع تظهر على وجه الماء ثم ما تلبث ان تزول . (تسمع ضجـة كبيـرة خارج المسرح) لقـد ابتدأت المأدبة . ان ضجيجها يصل اذني كأنه نذير شؤم . لا شك في ان عيني الامير تدوران الان بين الفيلة وبيـن الناس فـلا تكادان تجدان فرقا . (الضجيج يتعالى) انـنـي ارثي لـه . ارثي لهذا الامير . ان الوهم الذي يحاول ان يجعل منـه حقيقـة ليس باطـلا كله .. ولكـن انى له ان يدرك ان الطريق الذي

ـ التتمة على الصفحة ٦٥ ـ

الفيلـــة

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٢ ـ

***

يريـد ان يصل به الى الحقيقـة باطل كبير ؟.

(اصوات يخلط بعضها ببعض)

ترى هل تنصاع الفيلة لسيدها فتصبح بشرا ؟ هل يقف كبيرالفيلة فيشكـر للامير يـده البيضاء ؟ هل يغتبط الامير عندها فيامر ان يكون في كل مدينـة فيل يدبـر امورهـا ويسوس ناسها ؟...

(اصوات اطباق تتحطم)

سيدي الفيل : لقـد كسرت احد اطباقي . ان هذا صوت لا يمكـن ان تخطئه اذنـي .

(صوت أشياء خشبية تتحطم)

سيدي الفيل : لقـد عبثت قدمك باحدى مناضدي ، فهذا صوتها وهي تنقذف الى الهـواء ثم تهوى مخلعـة مكسورة .

(الضجة تصبح فوضى من الاصوات
تتخللهـا صيحات فـزع)

ترى ماذا حدث ؟ ان أصوات الناس تختلط باصوات الفيلـة .هل فعلت الخمر مفعولهـا بالفيلة ؟ هل ظنت نفسها قد صارت بشرا ؟

صوت : لينج من استطاع . لينج من استطاع .

التاجر : لا شك في ان شيئا ما قد حدث .

(صوت اقدام هاربة واندفاع جماعات هائجة)

لا شك في ان شيئا ما قد حدث . لقد دب الذعر في نفوس الناس فانطلقت صائحـة مستغيثة . لا شك في ان شيئا ما قد حدث .

صوت : لينج من استطاع . لينج من استطاع .

صوت : الويل لنا . الويل للامير ..

صوت : لينج من استطاع . لينج من استطاع .

(يدخل ابن التاجر في اضطراب شديد)

الفتى : ابـي . ابي ..

التاجر : قل ماذا حـدث ؟

الفتى (لاهثا) : الفيلة ... لقـد ثارت الفيلة .

التاجر : مـاذا قلت ؟

الفتى : لقد ثارت الفيلة . ما كاد الامير يصل الى الميدان الـذي اعده لمأدبة الفيلـة حتى امر باخراجها . ثم جعل يشير الى الارائـك النفيسة والاطباق الغاليـة التي صفهـا لها ، فاخذت الفيلة تشمهما ثم جعلت تربح اجسامها الثقيلة عليها . ثم ما لبث الطعام ان احضر . فاخذت الناس تهتف للامير والفيلة . ثم ما لبثت اقداح الخمر ان دارت فانقلب احدها على الارض فانكسر . فاذا بالفيلة تتناول الاقـداح فتقذف بهـا ارضا . ثم تتناول الاطباق فتقضمها . ثم بدأت الارائـك تتهاوى تحت ثقل ابدانها . وحين احس الامير بان المأدبة بدأت تستحيل الى ملهاة مفزعـة انتفض من مكانه واقفـا واخذ سوطا فجعل يضرب به الفيلة يمنة ويسرة . لو رأيت عينيه عند ذاك . كان فيهما شيء مرعب ... مرعب كان مقبرة بكاملهـا قد بعثرت فيهمـا . ولم تمض لحظـات حتى انتفضت الفيلة ثائرة مهتاجـة وانطلقت كمـا ينطلق مجنون خـرج لتوه من القبو الذي اغلق عليـه . ثـم مـا لبثت الناس ان رأت احـد الفيلـة ينقض على الامير فيعاجله بضربة من خرطومـه ثم يحاول ان يدوسه بقدمه الغليظ لو لم يبادر حرس الامير فيستخلصوه من بيـن اقـدام الفيـل .

التاجر : الامير ؟ هل تعني ان الامير قد أصيب ؟

الفتى : نعم يا أبـي .

التاجر : وهل مـات ؟

الفتى : كلا.لقد استطاع الحرس انقاذه قبل ان تجهز الفيلة عليه.

التاجر : يا لهـا من مهزلة حقـا ! ولكن الفيلة .. (يتوقف)

الفتى : مـاذا بهـا ؟

التاجر : .. ألم ترع لسيدها حقا ؟ الم تحفظ له عهدا ؟

الفتى : الفيلة ؟ لا يا أبي ! لقـد داست كل من كـان في طريقها..

التاجر : مساكين ! كلنـا مساكيـن .

الفتى : ماذا قلت يا ابي ؟

التاجر : لا شيء ! لقـد كان يحدثني قبل دقائق عن الفيلة كمـا لو كـان يحدثني عن حقيقـة يخاف عليهـا ان تصبح وهما .

الفتى : لقـد كـان مجنونـا .

التاجر : كـلا يا بني .لم يكـن مجنونا .

(تسمع ضجـة تقترب مـن المتجـر ثم يدخل بعض الحرس وهم يحملون الامير وقد ذهب لونه وغطت الدمـاء والغبار ثيابه ويقفـون في وسط المسرح فيشير اليهم التاجـر بان يضعوه على الارض وينصرفـوا . ينحني التاجر ويركع بجانـب الامير)

التاجر : سيـدي .

الامير : لا ترث لي . لا ترث لي .

التاجر : سيدي ارح بدنك ...

الامير : كمـا قلت لي .. الفيلة كالناس لا ذمة لهـا .

التاجر : دعني آت لك بجرعـة مـاء .

الامير : لا . ليس في الارض كلها ماء يستطيع ان يبل ظمئي .الان افهم ما قلت لـي . لقـد اردت ان ترى النهايـة . النهايـة التي كنت تعلم انهـا قادمة لا محالة . الان افهم ما قلت لـي . الان ادرك ان الانسان وحده هـو الاصل وهو الغاية . نعم . لقـد بدا لي ان اجعل من الفيلة بشرا . ان أفرضهـا على الناس فرضا . ان انهب البيوت من اجلها . ان انهب العقول من اجلها . ان استعبد الانسان من اجلها. ان اخضع اليـوم والغد لعقيدة نبتت في ذهني كمـا ينبت ورم خبيث. لقـد تملكني وهمي حتى كدت انكـر ان يكـون على الارض انسـان . ولكـن الانسان هـو الذي يبقى . لا فكرة تستطيع ان تجعله حجرا .لا قوة تستطيع ان تحيله فيـلا . لا وهم يستطيع ان يرجعه عبدا .الان ادرك هذا . الان ادرك كم اثمت حين حاولت ان اجعل من وهمـي حقيقة .. حين اقمت للفيلة قصرا لا تستطيع ان تسكن فيه . واليـوم اعلن اخفاقي . اعلن كفري بكل الفيلة على وجه الارض .

(يقـع ميتـا)

الفتى : لقـد مـات .

التاجر : نعم . لقـد مـات .

الفتى : لقـد اعلن كفره بالفيلة كلهـا .

التاجر : اجل ..

الفتى : كأني بك تبكي ؟ هل احزنك انه هـزم ؟

التاجر : اني ابكي فيه انسانا مثلي .

الفتى : لو لـم يأت بتلك الفيلـة لظل حيا .

التاجـر : لو لـم يأت بتلك الفيلـة لظلت المدينـة غافلـة لا تعلم ان هنـاك فيلـة تتهددهـا .

الفتى : لا يا ابي . لقـد كانت الفيلة صنع يديه . لقـد خلقهـا خلقـا . لقـد رباها حتى غدت شيئـا عجيبـا مرعبـا .

التاجر : كـان لا بـد للمدينـة من فيلـة . كـان لا بـد لهـا مـن ناس تؤمـن بهـا وتحاول اخضاعها .

الفتى : لم اكـن اعلم ان ثقتك في الانسان قد اهتزت .

التاجر : لا فضل للانسان في الهروب . انت لا تنتصر على المحنـة بالهـروب منها .

الفتى : ماذا ؟ هل تريد للانسان اذن ان يداس تحت اقدام فيـل غليـظ ؟

التاجر : بل اريـد لـه ان يجابه الفيلة وان يخرج ظافرا .

الفتى : ولكن ماذا يحدث لو ان الانسان مات ؟ انت تعلم ان هنـاك فيلـة لا يمكـن قهرهـا .

التاجر : كـلا يا بني . قد تموت الفيلة اليوم وقد تموت بعـد سنيـن ، ولكـن الانسان لا يمكـن ان يموت . لا يمكـن ان يموت .

عمـر النص